السنة الثالثة ليسانس

الشعبة الأدبية

مادة : قضايا النص الشعري القديم (محاضرة)

الأستاذة: راضية لرقم

المحاضرة الرابعة: الشعر السياسي في العصر الأموي :

أولا - الأوضاع السياسية في العصر الأموي :

زالت العصبية القبلية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ استطاع أن يؤلف بين قلوب الناس والمسلمين، ويقيم بينهم وحدة سياسية ، هدفها حماية الاسلام ونشر تعاليمه، واستطاع أبو بكر الصديق القضاء عليها بسياسته الحكيمة بعد ظهورها ثانية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلموأشغل المسلمين بالجهاد والفتوح، وكذلك فعل عمر بن الخطاب، لكن السخط والتذمر من سياسة عثمان بن عفان أودت بحياته، و وُجِدَتْ الخلافات السياسية، و بعد وفاة عثمان بن عفان 34هـ انقسم المسلمون بين مؤيد لـ علي بن أبي طالب،ومناصر لمعاوية بن أبي سفيان، ثم اتسعت الهوة، وكثرت الأحزاب السياسية، وكانت تلك الفترة بداية دامية بين المسلمين فرّقت جموعهم وشتّتت وحدتهم، فنشبت الحرب بين علي بن أبي طالب الذي بايعه المسلمون خليفة بعدعثمان بن عفان،وبين معاوية بن أبي سفيان الذي كان واليا على الشام، فرفض أن يبايععليا فاستمرت الحرب بينهما سنوات حتى استشهد الإمام علي 41هـ .

إن هذه الحرب التي يسميها المؤرخون الفتنة الكبرى تركت آثارا بعيدة في المجتمع الاسلامي، فبرزت خلافات فكرية ومذهبية لم تكن مودودة ومن مظاهر الفتنة التي نجمت عنها ظهور عدة أحزاب لكل منها شعراؤها وخطباؤها، ومنها من ناصر عليا في خلافته، وظهر الحزب الذي يؤيد معاوية بن سفيان، وهناك من ناصر الشيعة .

ثانيا- الشعر السياسي الأموي :

من بين الأغراض الشعرية التي ظهرت في العصر الأموي الشعر الذي دار بين الأحزاب السياسية،والذي سمي بالشعر السياسي ، ويمكن تفصيل الحديث حل شعر هذه الأحزاب السياسية كالآتي :

أ- شعر الحزب الأموي:

مدح شعراء هذا الحزب الخلفاء الأمويين بدءا بمعاوية بن سفيان ومرورا ب عبد الملك بن مروان إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم ، كما مدحوا ولاتهم على الأقاليم أمثال الحجاج بن يوسف وغيره، ولقد أسرفوا في مدحهم وأضفوا عليهم صفات

لم تكن فيهم، ولعل الدافع الذي دفعهم إلى هذا هو ما يؤملونه من عطايا الأمويين وجوائزهم، ولذلك لم يكن مدحهم صادقا خالصا من أعماق قلوبهم إلا مدحهم ل عمر بن عبد العزيز ، وهذا "جرير بن عطية" يمدح "عبد الملك بن مروان " قائلا:

وإِنِّي قَدْ رَأَيْـــــتُ عَلِيَّ حَقًا زِيَارَتِي الخَلِيفَةَ وامْتِدَاحِي

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَبُحْتَ حَمِيَّ تُهَامَةَ بَعْدَ نَجْدٍ وَمَا شِيْئٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ

شرح الابيات:

1- لقد رأى الشاعر أنه واجب عليه أن يزور خليفة المسلمين ويمدحه بما هو أهله.
2- يقول الشاعر إنكم يا بني أمية خير البشر جميعا وأكرم الناس جميعا وأسخاهم كرما.
3- يقول الشاعر أنه بلغ من قوتك وجبروتك أنك هزمت عدوك اللدود عبد الله بن الزبير، ونزعت منه الملك والخلافة وطردته من تهامة ونجد ، لأنك يا أمير المؤمنين إذا حميت شيئا فلن يستطيع أحد أن يستبيحه بعد ذلك.

ب- شعر الحزب الزبيري:

إن أشهر شعراء هذا الحزب عبيد الله بن قيس الرقيات، وقال يمدح مصعب بن الزبير أخ عبد الله بن الزبير:

إِنَّمَا مُصْعَبُ شِهَابٌ مِنَ اللّٰهِ تَجَـلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ ولَا بِهِ كِـــبْرِيَاءُ

يَتَّقِي اللَّهَ فِي الأُمُورِ وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ هَمَّهُ الإِتقاءُ

شرح الأبيات:

1- إن مصعب بن الزبير مثل الشهاب الذي يشق الفضاء فيضيئ ظلمات الليل ، وفي وجه مصعب نور مثل ذلك الشهاب .

2- إن ملك مصعب ملك قوة الحق والعدل، وليس مثل بني أمية القائم على الجبروت والكبرياء وإذلال الناس.

3- مصعب تقي ورع في أموره كلها ، ومن كان تقيا فهو مفلح فيأموره كلها وكذلك كان مصعب.

ج- شعر حزب الخوارج:

يطلق لقب الخوارج على الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب عندما قبل التحكيم في الحرب التي كانت بينه وبين معاوية بن أبي سفيان،وثاروا حربا عليه وعلى معاوية، ولقد تميّز الخوارج بالشجاعة المفرطة، والتمسك الشديد بالدين تمسكا أخرجهم من الإسلام، وكانوا صادقين في شعرهم، حيث قال أحد شعرائهم واسمه فروة بن نوفل:

نُقَاتِلُ مَنْ يُقَاتِلُنَا وَنَرْضَى بِحُبِكُمْ اللَّهَ لا حُكْمَ الرِّجَالِ

وَفَارَقْنَا أَبَا حَسَـــن عَلِيًا فَمَا مِنْ رَجْـــعَةٍ أُخْرَى اللّيَالِي

شرح الأبيات:

1- يقول الشاعر في البيت الأول اننا نقاتل من يقاتلنا ، وإذا احتكمنا إلى كتاب الله رضينا بحكمه ، أما أن نحتكم إلى البشر فلا.

2- لذلك رفضنا أن نُحَكِّمَ الرجال في ديننا ، وبسبب تحكيم الرجال فارقنا عليا فراقا ما له رجعة؟

د- شعر الحزب الشيعي:

يعد شعراء الشيعة من أصدق الشعراء قولا لأن شعرهم ينبعث من عقيدة صادقة لآل البيت رضي الله عنهم، ويرون أن الخلافة حق الإمام علي وأبنائه من بعده بنص القرآن والحديث.

قال الكميت بن زيد :

بِخَاتِمُكُمْ غَصْبًا تَجُوزُ أُمُورُهُمْ فَلَمْ أَرَ غَصْبًا مِثْلَهُ يَتَغَصَّبُ

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمِ آيَةً تَأَوَلَهَـــا مِنَا تَقِيٌ وَمُغْرَبُ

وفي غَيْرِهَا آيًا وَآيًا تَتَابَعَتْ لَكُمْ نَصْبٌ فِيهَا لِذِي الشَّكِ مَنْصَبُ

شرح الأبيات:

1- يقول الشاعر إن بَنِي أُمَيَة اغْتَصَبُوا حَقَكُمْ يا بني هاشم، وبخاتم النبوة يحكمون الناس فأي ظلم هذا ؟

2- يضيف الشاعر أن حقكم يا بني هاشم ثابت بنص القرآن في سورة الشورى.

3- وفي غير هذه الآيات آيات أخرى في القرآن الكريم تثبت حقكم.

4- ويقول الشاعر في البيت الرابع أن بعض المنافقين يرون لبني أمية حقا على الناس، وذلك سفاهة لأن الحق مع الهاشمين.

ثالثا- خصائص الشعر السياسي في عصر بني أمية:

1- لقد تميز الشعر السياسي بأن استمد معانيه وأفكاره من معاني الشعر الجاهلي سواء في المدح أو الهجاء أو الفخر.

2- الوحدة الموضوعية التي كانت واضحة في أشعار الخوارج والشيعة وخصوصا عند الدفاع عن فضائلهم السياسية.

3- كانت معظم قصائد الشعر السياسي عبارة عن مقطوعات شعرية قصيرة ، فلم تكن قصائدهم طويلة ، وذلك لاقتصارها على غرض شعري واحد.

4- التأثر بالمعاني الإسلامية ؛ حيث نلمس الحماسة الدينية التي تمثلت في الدعوة إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله والأخلاق الاسلامية كالتقوى والعدل والصدق.

5- كانت الألفاظ والعبارات جزلة رقيقة وعذبة بعيدة عن الغموض والتكلف واقتباس الألفاظ القرآنية .

المحاضرة الخامسة : التقليد والتجديد في الشعر العباسي

تمهيد:

يعد العصر العباسي مرحلة مهمة في تطور الفكر العربي، وخلالها عرف ذروة عطائه في الفلسفة والعلم والأدب، وكان للاختلاف السائد في المجتمع في المواقف السياسية والاجتماعية والتطور الحضاري والفكري دافعا لوجود صراع بين المقلدين والمجددين، وتجلى ذلك في أدب ذلك العصر شكلا ومضمونا.

- **مظاهر التجديد في الشعر العباسي:**

أولا – التجديد في مقدمة القصيدة:

أعرض بعض الشعراء العباسيين عن افتتاح قصائدهم بذكر الأطلال لأن معظمهم من المولدين الذين لا تربطهم أية عاطفة بمعالم الحياة العربية الجاهلية، وقد عبّر أبو نواس تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور قائلا:

مَالِي بِدَارٍ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا شُغْلُ وَلا شَجَنِي لَهَا شَخْصٌ وَ لا طَلَلُ

وَلا رُسُومٌ وَلا أَبْكِـــي لِمَنْزِلَةٍ لِلْأَهْلِ عَنْهَا وَلِلْجِيـــرَانِ مُنْتَقَلُ

وقد استجاب لهذه الدعوة الواقعية كثير من شعراء العصر العباسي، فوجدناهم يستحدثون مقدمات جديدة تلائم طبيعة العصر العباسي من جهة، كما في مقدمات وصف الطبيعة عند أبي تمام والبحتري، والمقدمة التي تتضمن حكمة كما هو بارز عند المتنبي وأبي تمام وأبي العلاء المعري.

لكن أكبر حركة ثورية في هذا المجال هي تلك الداعية إلى استبدالها بالمقدمة الخمرية ، والتي يعد ابو نواس زعيمها، وهي حركة تغلب عليها النزعة الشعوبية الرامية إلى رفض كل مظاهر الحياة العربية، بما في ذلك المعايير الفنية وتقاليد القصيدة العربية، من ذلك قول أبي نواس:

عَاجَ الشَّقِيُّ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَّارَةِ البَلَدِ

يَبْكِي عَلَى طَلَلِ المَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ

ثانيا - الأغراض الشعرية القديمة التي طرأ عليها التجديد:

ظل الشعر العباسي محافظا على الأغراض الشعرية القديمة، لكن بسبب التغيير والتطور الذي طرأ في مختلف مجالات الحياة، ولم يكن الشعر بمنأى عن ذلك التغيير، فتطورت أغراض قديمة واستجدت أغراض أخرى.

أ- **المدح:**

استمر الشعراء في مدح بني العباس من أجل نيل عطايا الخلفاء السخية،وقد مدح الشعراء أيضا الأبطال وقادة الجيوش الإسلامية الذين خاضوا معارك ضد الأعداء وحققوا النصر، فقد أشادوا بكل معركة خاضوا غمارها، وبذلك لم تعد قصائدهم مدحا فقط، بل صارت تأريخا لأحداث تاريخية وقعت في ذلك العصر، ونختار من بين هذه الأشعار أبياتا من بائية أبي تمام في فتح عمورية، إذ مطلعها:

السَّيفُ أصْدَقُ أنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فِي حَدِّهِ الحَدُ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

يقول الشاعر : لقد ارجف المنجمون، وخوفوا من الاتجاه نحو عمورية، وتحدثوا عن أحداث جسام ستتمخض عنها الأيام، لكن استمر الزحف يقوده الخليفة، فحقق النصر، وأبطل بسيفه ما ارجفوا به، واثبت السيف انه اصدق من كتبهم، وان حده قد ميز الحق من الباطل المفترى، وتمثل بائية أبي تمام ملحمة بطولية لقائد وهب نفسه فداء لأهداف أمته.

ثم ينتقل أبو تمام لمدح عظمة الفتح والفرحة بالنصر؛ إذ يقول :

فَتحُ الفُتوحِ تَعالى أَن يُحيطَ بِهِ نَظمٌ مِنَ الشِعرِ أَو نَثرٌ مِنَ الخُطَبِ
فَتحٌ تَفَتَّحُ أَبوابُ السَماءِ لَهُ وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ
يا يَومَ وَقعَةِ عمورية اِنصَرَفَت مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ

يعبر الشاعر عن عظمة فتح عمورية ويصفه بفتح الفتوح، ومن عظمة هذا الفتح يعجز الشعر والنثر عن الوفاء بحقه ووصفه .

كما أن أَبوابُ السماء تَفَتَّحُ له؛ حيث شبه السماء بصورة " البيت" فحذف المشبه به وذكر شيء من لوازمه "أبواب"على سبيل الاستعارة المكنية، وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ: شبه الشاعر الأرض بإنسان يرتدي ثوب جديد، فحذف المشبه به وهو " الإنسان" ، وذكر شيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، ويريد الشاعر أن يقول أن هذا الفتح العظيم تستبشر به السماء فتتلقاه متفتحة الأبواب، وتبتهج به الأرض.فتبدو في زينتها وجلالها كالإنسان الذي يرتدي أجمل ثيابه .

ثم شبه تحقيق الأماني بالنصر على الأعداء بصورة الناقة التي امتلأ ضرعها باللبن فحذف المشبه به"الناقة" وذكر شيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية،و يبرز الشاعر فرحته وإعجابه بفتح عمورية وتحقيق أماني المسلمين فعادوا فرحين منتصرين ، وشبه ذلك بالحليب الممزوج بالعسل في ضرع الناقة وهنا كنايه على حلاوة النصر .

ومن مظاهر التجديد في غرض المدح في العصر العباسي أنه اتجه اتجاها جديدا حيث مدح الشعراء مدنهم وفضّلوها على غيرها، وأحيانا أخرى كانت قصيدة المديح بمثابة رسائل توجيهية للحاكم ليصلح من حال رعيته، وبالمقابل حافظ الشعراء العباسيون على المبالغة في مدح ملوكهم، كقول أبي نواس يمدح هارون الرشيد:

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطَفُ التِي لَمْ تُخْلَقِ

ب- الهجاء:

تطور الهجاء في العصر العباسي ولم يعد الهجاء وسيلة سياسية تقوم على الانتصار لعصبية قبلية أو حزب سياسي، أو النيل من الحلف المناهض ، ونقد مبادئه ومواقفه، مثل ما كان ظاهرا بين شعراء النقائض، وصار الهجاء وسيلة الشاعر للدفاع عن نفسه وشعره،و رد الأذى . والهجاء هو الفن المقابل للمديح، وقد عبر فيه الشعراء عن سخطهم وذمهم من رفض تحقيق

مرادهم، ولذلك كان وقع الهجاء على نفوس المجويين قاسيا ، ويتجلى ذلك على سبيل المثال في هجاء حماد عجرد للشاعر بشار بن برد بقوله:

أَعْمَى يُشْبِهُ القِرْدَ إِذَا مَا عُمِيَ القِرْدُ

دَنِيءٌ لَمْ يَرُحْ يَوْمًا إِلَى مَجْدٍ وَلَمْ يَغْدُ

لقد هجا حماد عجرد الشاعر بشار بن برد في شكله الجسدي؛ فشبهه بالقرد ، وأن له منزلة دنيئة وأنه بعيد كل البعد عن تحقيق المجد والمنزلة الرفيعة في مجتمعه، ولقد بكى بشار بن برد من شدة وقع الهجاء على نفسه وإيلامه .

ونجد الشاعر ابن الرومي قد سلّط هجاءه على جل أفراد المجتمع،ولا يفرّق بين سلطان ولا فقير ولا شاعر أو فقيه ولا عالم ولا وزير، فيهجو الخليفة المعتز فيقول:

دَعِ الخِلافَةَ يَا مُعْتَزُّ مِنْ كَثَبٍ فَلَيْسَ يَكْسُوكَ مِنْهَا اللّٰهُ مَا سَلَبَا

فَكَيْفَ يَرْضَاكَ بَعْدَ المويقَاتِ لَهَا لا كَيْفَ؟ لاكَيْفَ؟ إِلا المينَ والكَذِبَا؟

وقد يهجو الشاعر مساوئ ومعايب المهجو، يصف خلاله القبح وصفا مضحكا ، ويصوره بطريقة ساخرة، مستخدما العيوب الجسدية ، ومثال ذلك قول ابن الرومي في وصف البخيل:

يُقَتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلا خَـــالِدِ

فَلَوْ يَسْتَـــطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنَفَّسَ مِنْ مِنْخَرٍ وَاحِـــدِ

نلاحظ من خلال هجاء الشاعر لصفة البخل تجديدا في هذا الغرض؛ إذ لو اطلعنا على هجاء الشعراء الجاهليين والأمويين لوجدنا أن صفة البخل تناولها معظم الشعراء فقط من الجانب المتعلق بالفعل الناجم عن هذه الصفة من الناحية الخُلُقية ، ولم يتناولها الشعراء من خلال ربطها بالجانب الجسدي كما فعل الشاعر ابن الرومي.

ب_الغزل:

لقد أثّر انتشار مجالس اللهو والشراب التي امتلأت بالقيان والمغنيات، مما جعل الشعراء ينظمون شعر الغزل بطرق تتسم بالمجون، كما ظهر التغزل بالغلمان والمذكر، والتي ظهرت من قبل لدى الفرس، ثم عمت في المجتمع العباسي على أيدي الموالي وغيرهم،وكان هذا النوع من الغزل ينتهك قيم المجتمع من الناحية الموضوعية.

3- الرثاء:

اتسع نطاق الرثاء في هذا العصر، فعلاوة على رثاء الخلفاء والقادة،ظهر نوع آخر من الرثاء متمثلا في بكاء الأساتذة والعلماء، كما فعل تلميذ الأعلم الشنتمري حيث أعجب به بعد أن وفد إلى المعتمد بن عباد والتقى به وحينما توفي رثاه بحرارة، من ذلك قوله:

اسْمَعْ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ وَنَاصِرَ الدِّينِ الذي بِنُفُوسِنَا نَفْدِيهِ

جُوزِيتَ خَيْرًا عَنْ رَعِيتِكَ لَمْ تَرْضَ فِيهَا غَيْرَ مَا يَرْضِيهِ

فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ تُـــــرْ دِي عَـــدَدَ الرُّومِ أَمْ تَفْنِيهِ

تَصِلُ الجِهَادَ إِلَى الجِهَادِ مُوَفَّقًا حُكْمَ القَضَاءِ بِكُلِّ مَا تَقْتَضِيهِ

مُتَوَاضِعًا للهِ مُظْـــــهِرَ دِينِهِ فِي كُـــــلِّ مَاتُخْفِيهِ أَوْ تُبْدِيهِ

كما ازدهر لون آخر من هذا الفن يمكن أن نطلق عليه "الرثاء المذهبي" حيث كثرت نماذجه في المجتمع العباسي الذي حوى أحزابا متعددة أهمها الحزب العلوي، وخلال المعارك المتصلة في الصراع بين الحكم العباسي والأحزاب المعارضة له، فسقط كثير من الشيعة، فرثاهم الشعراء رثاء صادقا .

وقد ظهر نوع آخر من الرثاء لم يكن معروفا قبل العصر العباسي، والمتمثل في رثاء المدن؛ مثل رثاء ابن الرومي لمدينة البصرة، عندما أغار عليها الزنج فنهبوها وأحرقوها، إذ يقول:

ذَادَ عَنْ مُقْلَتِي لَذِيذَ المَنَـــــامِ شُغْلَهَا عَنْهُ بِالدُّمُوعِ السِّجَامِ

أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا حَلَّ بِالبَصْرَةِ مِنْ تِلْـــكُمُ الهَنَّاتِ العِظَامِ؟

أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا انْتَهَكَ الزِّنْـــ ـــجُ جَهَارًا مَحَارِمَ الإِسْلامِ؟

4- الزهد:

ظهر في مقابل المجون واللهو نزعة أخرى تجلت في شعر الزهد، والذي يصف حقيقة الدنيا الزائلة وأن الآخرة خير وأبقى، وبرز في هذا النوع من الشعر أبو العتاهية الذي كانت له فلسفته الخاصة في الزهد، إذ يقول في إحدى قصائده:

ألا إِنَّنَا كُلُّنَـــا بَائِـــــدُ وَأَيُّ بَنِـــي آدَمٍ خَـــالِدُ؟

وَبَدْؤُهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِـــــم وَكُلٌّ إِلَى رَبِّـــــهِ عَائِدُ

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الإِلهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

5- الوصف:

عرف غرض الوصف تطورا ملحوظا في العصر العباسي اختلف في بعض خصائصه عمّا كان سائدا في العصر الجاهلي والأموي، وساهم في ذلك التغييرات التي طرأت على المجتمع العباسي، والتي جعلت الشاعر يعيش في نعيم وبذخ، مما فرض ذلك ظهور موضوعات جديدة تتوافق مع ما تقع عليه العين من مظاهر الطبيعة والتطور الحضاري، ولعل أهم موضوع يتجلى ذلك فيه هو وصف الرياض، والافتتان في تصويرها، وقد اشتهر بذلك البحتري، ومثال ذلك وصفه للربيع :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى أَوَائِلَ وَرْدٍ كُـــــنَّ بالأَمْسِ نُوَّمَا

يُفَتِّقُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَـــــأَنَّهُ يَبُثُ حَدِيثًا كَـــانَ أَمْسِ مُكَتَّمَا

وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعُ لِبَاسَـــــهُ عَلَيْهِ كَمَا نَشـــرَّتَ وَشْيًا مُنَمْنَمَا

أَحَّ فَأَبْدَى لِلْعُيُونِ بَشَـــــاشَةً وَكَانَ قَذًى لِلْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحَرِمَا

و رَقَّ نَسِيـــمُ الرِّيحِ حَتَّى حَسِبْتُهُ يَجِيءُ بِأَنْفَـــــــاسِ الأَحِبَةِ نُعَّمَا

ثالثا- الأغراض المستحدثة في العصر العباسي:

ظهرت أغراض جديدة في العصر العباسي لم تكن موجودة من قبل من بينها :

أ- **الشعر التعليمي**: وهو فن استحدثه الشعراء العباسيون، وكان ذلك نتيجة تطور الحياة العقلية وكذلك تنوع روافد الثقافة في العصر العباسي، وكان لابد للأديب أن ينهل منها ،وكانت الحاجة إلى وسيلة تسهل ذلك،فلجأ الشعراء إلى نظم أشعار في مختلف العلوم مثل: النحو والفقه والمنطق، مما يسهّل تداولها وحفظها في الذاكرة.

ب- **الشعر الوطني**: وظهر نتيجة التطور الحضاري الذي بلغه العصر العباسي، فبنيت القصور الفخمة والحدائق ،فصار الشاعر العباسي يحن إلى المدن التي نشأ فيها ، وله ذكريات فيها.

ج- **شعر السخرية والفكاهة**: ظهر هذا الغرض من الشعر نتيجة موقف الشعراء من الصفات الذميمة التي كثيرا ما وظفوها في غرض الهجاء، فصار الشعراء يسخرون ممن يتصفون بتلك الصفات،وكان الشاعر العباسي أحيانا أخرى يجنح إلى ذلك طلبا للهو والمزاح ، فقد ظهر في العصر العباسي ميل عام إلى الفكاهة والنادرة، ومن بين هؤلاء الشعراء : بشار بن برد، ابن الرومي، وأبو نواس.

رابعا- التطور على مستوى الأوزان الشعرية:

لم تكن الأوزان قيدا يقف أمام الشاعر العباسي المقتدر وصاحب الثقافة اللغوية الواسعة، ولكن تطور الحياة العربية على مر العصور والتطور الحضاري الذي عرفه العصر العباسي واختلاط المجتمع العربي بأجناس مختلفة تبعه بالضرورة هجران كثير من ألفاظ العربية البعيدة عن واقع الحياة لزوال دواعي استعمالها، وعليه فإن هؤلاء الشعراء وجدوا في الأوزان عائقا يقف في طريقهم، ويشكل قيدا ثقيلا يمنعهم من الانطلاق، وقد ظهر ذلك في شعر المتأخرين، كما أن شيوع الغناء في المجتمع كله تحول بالشعر إلى الطابع الشعبي، فانصرف الشعراء عن الأوزان الصعبة والمعقدة، وأقبلوا على الأوزان الخفيفة الملائمة للغناء

كالوافر، الخفيف، الرمل ، المتقارب، واستعملوا مجزوء الأوزان الطويلة مثل: مجزوء الكامل ، مجزوء البسيط، مجزوء الرمل ...،وذلك كله استجابة لتطور الذوق العام الذي أرهفته الحضارة والمدينة.

يمكن القول ختاما أن التطور الكبير الذي عرفه العصر العباسي في ميادين مختلفة انعكس على الجانب الفني للشعر، فتطورت الأغراض القديمة، وتم استحداث أغراض أخرى لم تكن موجودة من قبل وغيرها من التغييرات التي طرأت على القصيدة العربية .

المحاضرة السادسة: الزهد والتصوف في الشعر العباسي

أولا- شعر الزهد في العصر العباسي

1- مفهوم الزهد لغة واصطلاحا:

يعرف الزهد لغة بأنه القلة في الشيء الزهيد، وهو الشيء القليل،وتأتي لفظة زهد بمعنى لم يرغب في أمر معين فزهد فيه، والزاهد في الدنيا التارك لها.

أما اصطلاحا فالزهد هو حنين الروح إلى مصدرها، لمعرفة الخالق عن طريق الزهد في الدنيا ومتاعها، والانصراف عنها احتقارا وتصغيرا لشأنها، والرغبة عن نعيمها، وتفضيل نعيم الآخرة عليها.

2-نشأة شعر الزهد وخصائصه:

لقد أحدث ظهور الإسلام تغييرا كبيرا في حياة العرب، وجاء بقيم التوحيد والعبادة، ومجاهدة النفس وشهواتها، والإقبال على الفضائل واخلاص العبادة الله وحده، والإنقياد لأوامره، وتجنب نواهيه، وكان نتيجة ذلك أن سلك الكثير من المسلمين طريق الزهد في الدنيا،ويؤيد ذلك شوقي ضيف؛ إذ يرى أن "المصدر الأساسي لهذا الزهد كان الإسلام نفسه، وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهال إلى االله وانتظار ما عنده من النعيم الحق. وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ، تعيش حياتها تعظ الناس وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة عينهم"، غير أن ذلك لا يعني أن المسلم الزاهد في الدنيا ملزم بترك أموره الدنيوية، وعدم إنجاز مسؤولياته؛ بل هو مطالب باختيار الأسباب والوسائل المؤدية إلى بغيته في حدود الشرع، ومطالب بالجد والاجتهاد لصالحه وصالح المجتمع، إلا أن الإسلام يركز تركيزا شديدا على إعطاء التصور الحقيقي الصحيح لهذه الدنيا الفانية، ويذكر الإنسان بالاستمرار أن مستقره الدائم هو الحياة الآخروية لكي لا يغتر بمفاتن الدنيا وزخارفها، ولكي لا ينسى دوره في هذه الدنيا وواجبه الذي خلقه االله لأجله ألا وهو عبادة االله عز وجل.

كما شهدت الدولة الأموية بعد عهدي: النبي صلى االله عليه وسلم والخلفاء الراشدين تغييرا في الحياة الإجتاعية؛ بعد الفتوحات الإسلامية؛ حيث

أصابوا غنائم كثيرة، فصار المسلمون يعيشون حياة الترف، وأقبلوا على ملذات الحياة واللهو، وما تبع ذلك ٍ من انحراف خلقي، واثر ذلك وجد المسلمون أنفسهم ملزمين بدعوة الناس إلى اتباع طريق الحق والإبتعاد عن الشهوات، والزهد في الدنيا، وبالتالي يكون ظهور حركة الزهد في القرن الأول الهجري نتيجة تلك الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها المسلمون انذاك.

بالإضافة إلى أن التطور الإجتماعي الذي حدث في القرن الثاني كان له أثرا خطيرا في تيار الزهد وتطوره. فشيوع تيار اللهو والمجون والزندقة و وجود فوارق واضحة بين الطبقات الاجتماعية في ذلك العصر، كان لابد أن يوجد حركة عكسية مضادة تعكف على تقوى الله وتقصر نفسها على العبادة، وتحتقر المال وزخرف الدنيا وزينتها. ولاشك أن الذي ساعد على وجود هذه الحركة المضادة ظهور طائفة القصاص في المجتمع الإسلامي الذين كانوا يقصون على الناس في المساجد أساطير الأولين، وسير الأولياء والصالحين، ويستخلصون منها العبر والعظات ليردوا إلى الناس عناصر إيمانهم في هذا المجتمع ، الذي زعزع الشك أركانه والذي غزته المذاهب والنحل والآراء والثقافات الأجنبية، والذي يحاول أعداؤه من الشعوبيين هدمه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وبالتالي فقد انتشر شعر الزهد في القرنين الأول والثاني الهجريين، وساهمت في ذلك عوامل سياسية واجتماعية ودينية، أثّرت في نفوس الناس، وحركت فيهم الرغبة في الزهد، بالإنصراف عن متاع الدنيا ولذاتها، والسعي للظفر بنعيم الآخرة، وللإسلام أثر كبير في ذلك، باعتباره يحث على الزهد في الدنيا والإنصراف عنها، والرغبة في الآخرة، كما انصرف بعض الشعراء ، وخصوصا في العصر العباسي إلى نظم شعر الزهد، رغبة فى الابتعاد عن القضايا السياسية هذا من جهة، كما ظهرت طائفة من الشعراء الذين أزعجهم شيوع اللهو والمجون، ولم يستطيعوا الوقوف في وجه ذلك التيار، فراحوا يعبرون عن استيائهم من ذلك من خلال شعر الزهد.

ويتضمن شعر الزهد الدعوة إلى الموعظة والعبادة والنسك، والحث على الإنصراف عن ملذات الدنيا ومتاعها، وعدم تعلق القلب بها، وعدم الخضوع لها، والتذكير بالآخرة الدارالأبدية، ومن أمثلة تلك الأشعار في الزهد :

يقول أبو فراس الحمداني :

الدَّهْرُ يَوْمَانَ: ذَا ثَابِتٌ وَذَا زَلَلُ وَالعَيْشُ طَعْمَانِ ذَا صَابٌ وَذَا عَسَلُ

كَذَا الزَّمَانُ فَمَا فِي نِعْمَةٍ بَطَرُ لِلْعَـــــارِفِينَ وَلا فِي نِقْمَةٍ فَشَلُ

ويقول أبو نواس:

أَيَا مَنْ لَيْسَ مِنْهُ مُجِيرُ بِعَفْوِكَ مِنْ عَذَابِكَ أَسْتَجِيرُ

أَنَا العَبدُ المُقِرُّ بِكُلِّ ذَنْبٍ وَأَنْتَ السَيِّدُ المَوْلَى الغَفُورُ

فَإِنْ عَذَّبْتَنِي فَبسُوءِ فِعْلِي وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ بِهِ جَدِيرُ

أَفِرُّ إِلَيْكَ مِنْكَ وأَيْنَ إِلّا إِلَيْكَ يَفِرُ إِلَيْكَ المُسْتَجِيرُ

وخير من يمثل شعر الزهد في العصر العباسي الشاعر أبو العتاهية الذي يقول:

مَا لَنَا لا نَتَـــــــفَكَّرْ أَيْنَ كِسْرَى أَيْنَ قَيْصَرْ؟

أَيْنَ مَنْ جَمَـــــعَ المَا لَ مَعَ المَــالِ فَأَكْثَرْ؟

أَيْنَ مَنْ كَـــــانَ يُسَامِي بِغَــنَّى الدُّنْيَا وَيَفْخَرْ

لَيْتَ شِـــعْرِي أَيَّ شَيْءٍ بَعْــدَ شَيْءٍ مِنْهُ أَنْظُرْ

قَدْ رَأَيْـــــنَا الدَّهْرَ يُفْنِي مَعْــشَرًا مِنْ بَعْدِ مَعْشَرْ

لَيْـــــــسَ يَبْقَى ذُو يَسَارٍ لا وَلا مَنْ كَـــانَ مُعْسِرْ

ويقول أيضا:

أُفٍ للدُنْيَا فَلَيْسَتْ هِيَ بِدَارْ إِنَّـــمَا الرَّاحَةُ فِي دَارِ القَرَارْ

أَبَتِ السَاعَاتُ إِلَّا سُرْعَةً فِي بِـــلَى جِسْمِي بِلَيْلٍ وَنَهَارْ

إِنّمَا الدُنْـيَا غُرُورٌ كُلُّهَ مِثْلُ لَمْعِ الآلِ فِي الأَرْضِ القِفَارْ

يقدم أبو العتاهية النصح والموعظة للبشر،داعيا إلى ترك متاع الحياة؛ فالدنيا ليست دار بقاء أبدي، ويحذر كل من أغرته الدنيا أنها زائلة لا محالة، فيجب على الإنسان الإنصراف عنها والزهد فيها.

ثانيا- شعر التصوف

1-مفهوم التصوف لغة واصطلاحا:

جاء في لسان العرب معنى لفظة تصوف مشتقة من كلمة صوف، ونسب اسم صوفية إلى قبيلة،وترد معان أخرى لمفردة التصوف مثل الدلالة على الصفاء والصفو، وتشير أيضا إلى أهل الصفة الذين كانوا يسكنون صفة المسجد النبوي، ويزهدون في الدنيا.

والتصوف اصطلاحا هو العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه، والصوفي عند أهل التصوف من هو فانٍ بنفسه باقٍ بالله نعالى مستخلص من الطبائع متصل بحقيقة الحقائق، والتصوف مذهب كله جدّ فلا يخلطونه بشيء من الهزل،وهو تضحية باللذائذ، ومجاهدة النفس ومغالبة لأهوائها، فالصوفي هو الزاهد في دنياه، والمتعلق قلبه بالله.

2-نشأة التصوف وخصائصه:

لقد تطور تيار الزهد الذي ظهر في القرن 2هـ إلى تصوف، غير أن هناك فرقا واضحا بين الزهد والتصوف؛ حيث أن الزهد اتجاه سلوكي مضمونه التقشف، والإنقطاع عن الدنيا، والتجاه إلى الله عن طريق العبادات المعروفة في الدين، فغاية الزاهد إذن تمام العبادات، وكمالها على ما وضعه الشرف، وأما المتصوف، فهو الذي يسلك طريق التجربة الروحية، ويستعمل طرق المجاهدة، والرياضة الروحية لكي يصل إلى مرتبة تتكشف له فيها الحقائق العليا ، فيكون قد تخطى عتبة الدين الظاهر، والرسوم الشرعية الشرعية؛وبالتالي فإن مرتبة التصوف أرقى من مرتبة الزهد؛ باعتبار التصوف تجربة روحية تتجاوز ماهو متجلي إلى ماهو روحاني، بينما الزهد يعد سلوكا يوضح انصراف الزاهد عن متاع الدنيا، والتقرب من الله عن طريق العبادات التي يسعى إلى كمالها.

كما أن التصوف » لم يعرف نهائيا بهذا الإسم، وبهذا العلم في القرن الأول؛ بل عرف باسم الزهد، والعبادة في القرن الثاني والثالث الهجري وأخذ حدوده وأبعاده في نهاية القرن الثالث، وظهر فيه التطرف والإفراط بعد ذلك، ودخل حيز الفلسفة ثم بدأ يتراجع ويقترن بالأخلاق والتربية في عصرنا الحاضر، ومنأعلام التصوف الذين برزوا في القرن الثاني الهجري : سعيد بن المسيب)ت159هـ(، يحي بن دينار)ت131هـ)،و رابعة العدوية)ت185هـ.).

أما في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فقد عمل الصوفية على خلق التوفيق بين بين التصوف وتعاليم الدين الإسلامي،و اتخذوا القرآن والسنة ميزانا، وعنوا بوجه خاص بناحية الزهد، والعبادة الأخلاقية في التصوف ، ومن أبرز أعلام هذين القرنين، نذكر: ذو النون المصري)ت245هـ(، الحلاج)ت209هـ(، والشبلي)ت334هـ.).

وقد تطور التصوف في القرن الخامس، فظهر التصوف الديني الأخلاقي، أو ما يسمى بالتصوف السني ،و هو الذي سيطر بوضوح على تصوف ومتصوفة القرن الخامس الهجري، ويعتبر الإمام الغزالي أكبر مدافع في الإسلام عن التصوف السني، وهو التصوف القائم على عقيدة أهل السنة والجماعة، وعلى الزهد والتقشف وتربية النفس وا » ،1ومن أعلام التصوف في القرن الخامس:أبو القاسم القشيري)465هـ(،الإمام الغزالي)ت505هـ(، و عبد القادر الجيلي)ت561هـ)،و نجد التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين صار » أقرب ما يكون إلى الفلسفة، فقد توجهت همم أصحابه في تلك الفترة إلى الكلام في حقائق الموجودات العلوية، والسفلية على وجه لا يفهمه من لم يشاركهم في أذواقهم ومواجيدهم »،3ومن أعلام التصوف التصوف في هذين القرنين نذكر: السهروردي)ت587هـ(، محي الدين بن عربي (ت638هـ(، ابن سبعين الأندلسي)ت669هـ(، وعمر بن الفارض)ت632هـ.)،أما في الفترة الممتدة من القرن الثامن الهجري إلى غاية القرن العاشر الهجري فقد كان للتصوف تأثيرا كبيرا على العالم الإسلامي من نواحي عديدة ،ومن أبرز أعلام التصوف في هذه الفترة: تقي الدين السبكي)ت756هـ(، ظهر شمس الدين الحنفي (ت847هـ(، السيوطي)ت 911هـ(، الشعراني)ت973هـ).

3-خصائص الشعر الصوفي :

يعبّر الشاعر الصوفي من خلاله شعره الصوفي عن تجربته الروحية بلغة خاصة تجنح إلى الايحاء والمجاز والرمز، يصعب على غير الصوفي فهمها، فقد يحمل الشعر الصوفي معنيين؛ أحدهما ظاهر يفهم من لفظه، والآخر خفي لا يتمكن منه إلا من له إطلاع ومعرفة بالمصطلحات الصوفية،غير أن تلك الرموز الصوفية تضيف إلى النصوص الشعرية الصوفية جمالا فنيا يصلنا بعالم الجمال والسمو الروحي، غير أن هذا الشعر واجه انتقادات كثيرة عبر العصور من قبل الفقهاء نظرا لغموض معانيه، واعتماده على الرمز، فعلى سبيل المثال نجد الشاعر عمر بن الفارض يتحدث عن النساء وعن الحب الإنساني في شعره الصوفي تماما مثل ما يقوم به الشعراء العذريون، غير أن عمر بن الفارض لا يقصد المعاني التي ذهب إليها العذريون، إنما كان يرمز إلى الذات الإلهية ، مثال ذلك قوله:

زِدْني بفَرْطِ الحُبّ فيك تَحَيّرا وارْحَمْ حشىً بلَظَى هواكَ تسعّرا

وإذا سألْتكَ أن أراكَ حقيقةً فاسمَحْ ولا تجعلْ جوابي لن تَرى

يا قلبُ أنتَ وعدَتني في حُبّهِمْ صَبراً فحاذرْ أن تَضِيقَ وتَضجرا

إنَّ الغـرامَ هوَ الحياةُ فمُتْ بِهِ صَـــــبّاً فحقّك أن تَموتَ وتُعذرا

شرح الأبيات:

1- يوجه الشاعر خطابه إلى الذات الإلهية، وفي ذلك إفصاح بالمحبة المجاوزة لكل حد، ويطلب من الذات الإلهية الرحمة له ولما في بطنه من حشى تسّعر وتوقد بسبب محبته للإله.
2- في هذا البيت تلميح لقصة موسى عليه السلام حين طلب من ربه رؤيته، والمقصود من الرؤية هنا طلب الرؤية في الآخرة، إذ أن النبي موسى حرم من رؤية الله فكيف بـ عبد بسيط .
3- يحذر الشاعر قلبه من أن يضيق ويمل من صبره في محبة الله، لأن الوفاء بالوعد كالقيام بالعهد ، فهو يطلب لنفسه الصبر والثبات على طاعة الله.
4- إن الموت في سبيل حب الله معذور فيه لأنه سيكون حيا إذا مات فيه؛ لأن الموت في حب الإله هو حياة حقيقية، وهو موت يختاره الإنسان لأن المقصود منه موت رغبات النفس من خلال التفاني في حب الإله.

كما عُرِفَتْ رابعة العدوية بكونها شاعرة فلسفة الحب؛ إذ قضت حياتها في حب الذات الإلهية، و وصالها؛ إذ تقول:

أُحِـبُكَ حُبَيْنِ: حُـبَّ الهَوَى وَحُـــــبًا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَا

فَأَمَّـا الذِّي هُوَ حُبُ الهَوَى فَشُـغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَنْ سِوَاكَا

وَأَمَّـــا الذِّي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الحُجبَ حَتَّى أَرَاكَا

فَلَا الحَمْدُ فِي ذَا وَلا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الحَـمْدُ فِي ذَا وَذَاكَا

تتناول هذه الأبيات معاني حب الله ، فقول الشاعرة "حبا لأنك أهل لذاك" فيه ثناء و وصف لله بماهو أهل له، وأنه وحده المستحق للمحبة الخالصة، فهو سبحانه أهل لأن يُحَبَ لذاته.

و يشير المقطع الشعري الى نوعين من الحب الاول هو حب الهوى والمقصود به هنا العشق المعروف بين الناس ، والنوع الاخر من الحب هو الحب الالهي بين العبد وخالقه.

وتوضح الشاعرة بأنها قد أغلقت قلبها عن الخلق، وأشرعت أبوابه ليسلك طريق معرفة الله المؤدية بحسب المتصوفة إلى الوصول لحالة العشق، ذلك العشق المتفرد لله وبالله، وتحاول الشاعرة رابعة العدوية هنا أن تصنع مفهوماً يبين مدى وفائها وتعلقها، من خلال ذلك البيت الشعري بعشقها الإلهي.

وقد لا يستبين القارئ للقصيدة للوهلة الأولى أنها موجهة لأعظم محبوب وهو ربنا جل جلاله؛ لأن الكلمات لا تؤشر مباشرة إلى ذلك، وكأنها تريد لقارئها أن يدخل رويداً رويداً إلى أكناف عالم عظيم لا مثيل له، فهي تقوده إلى مدارج تلك الدهشة تدريجياً، ثم تبدأ الإفصاح عن ذلك الحب الرباني المختلف تماماً عن الحب العادي؛ فهو حب أسمى من كل ذلك؛ لأنه حب يحاول أن يكون أهلاً للمحبوب الله، إنه حب بعد معرفة ووصول إلى أسمى مقامات شهود الله في كونه وخلقه وحكمته، وهو لذلك تخطى كل الحجب، وبات في مرتبة الإحسان التي هي من أرفع مراتب العبادة لله، والتي قيل عنها: أن تعبد الله كأنك تراه.

كما تنسب الشاعرة الفضل في كل ذلك الحب وبأنواعه لله –تبارك وتعالى– في بلوغ مرتبة الحمد والرضا بما يقدره الإله، وما يلقيه في قلوب عباده من محبة له وطمأنينة بتلك المحبة.

إن الحديث عن الزهد والتصوف يفترض وجود أحدهما الآخر، باعتبار أن الزهد مهّد لظهور التصوف، فالزهد كان دعوة إلى الإنصراف عن ترف الحياة والإكتفاء بما يضمن للإنسان استمرار الحياة، في حين اتسم التصوف بالإعراض المطلق عن زينة الحياة ورغبات النفس وشهواتها.

بالإضافة إلى أن شعر الزهد والتصوف من فنون الشعر التي ازدهرت في العصر العباسي، وقد نظم العديد من الشعراء العباسيين قصائد تسمو بالنفس وروح الإنسان إلى أعلى المراتب العرفانية.

المحاضرة السادسة: قصيدة المديح في الشعر العربي القديم

لقد عرف غرض المدح حضورا بارزا في قصائد الشعراء العرب على مدى العصور المختلفة منذ العصر الجاهلي، وشهد تطورا في التعبيرعن قيم المجتمع العربي وفضائله المختلفة، مما ساهم في تخليد أصحابها ومآثرهم الاجتماعية، وقيمهم القائمة على مكارم الأخلاق، ويمكن التفصيل في ذلك فيما ياتي.

1- مفهوم المدح لغة واصطلاحا :

يرد في لسان العرب لابن منظور أن مفهوم المدح هو حُسن الثناء، ونقيض الهجاء، والمدائح جمع مفرده المدحة والأمدوحة وهو الشعر الذي مُدح به.

أما اصطلاحا فالمدح هو ثناء الشاعر على شخص ما، و وصفه بمكارم الأخلاق والفضائل الحميدة، ويعد شعر المدح وسيلة الشاعر للثناء على سادة قبيلته وفرسانها، ويعد من أهم أغراض الشعر العربي القديم؛ إذ يقول ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه أن أصناف الشعر أربعة وهي : المديح والهجاء والحكمة واللهو، ثم يتفرغ من كل صنف من ذلك فنون؛ فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمخمور.

2- خصائص قصيدة المدح :

يذكر ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء" خصائص قصيدة المدح فيقول : "سمعت بعض أهل الأدب يذكر: أن مُقَصِّدَ القصيدِ إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه، ، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبّة الغزل وإلف النساء... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقّب بإيجلب الحقوق فرحل في شعره وشكا النّصب والسهر وسُرَى الليل، وحرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير؛ فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء... بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزّه على السماح وفضّله على الأشباه"

يتضح من خلال قول ابن قتيبة أن شعراء العصر الجاهلي كانوا يستهلون قصائد المدح بذكر الأطلال والبكاء على رحيل أهلها الظاعنين، تعبيرا عن شوقهم للأحبة، وقد لاحت من بعيد ذكرى رحيلهم وفراقهم، ثم ينتقلون إلى وصف رحلتهم وراحلتهم السريعة والنشيطة، معبرين عن معاناتهم من مشقة السفر، ثم ينتقلون إلى غرض المدح، وقد اتبع الكثير من الشعراء هذا النمط من قصيدة المدح في العصور الموالية للعصر الجاهلي، غير أن شعراء العصر العباسي رفضوا افتتاح قصائد المدح بالبكاء على الديار المقفرة، لعدم وجود عواطف تربطهم بالطلل، وهذا أمر طبيعي؛ فقد ساد التطور الحضاري والاجتماعي في العصر العباسي مما يتنافر مع حياة البداوة.

وكان الشاعر الجاهلي يمدح ممدوحه بفضائل حميدة وبمكارم الأخلاق؛ مثل: الكرم، الشجاعة، المروءة، العدل، إغاثة المستغيث... وغيرها، ولعل أسمى معاني المديح التي تجلت في قصائد شعراء الجاهلية تلك الابيات التي مدح الشاعر زهير بن أبي سلمى رجلان هما : "هرم بن سنان" و "حارث بن عوف"، ومدح صنيعهما حين دفعا ديات القتلى، كي يوقفا الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان التي دامت أربعين سنة، من ذلك هذه الأبيات المقتبسة من معلقته:

يَمـيناً لَنِـعمَ السَـــــيِّدانِ وُجِـــدتُما عَلى كُـلِّ حــالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبرَمِ

تَدارَكتُما عَبساً وَذُبيانَ بَعدَما تَفانوا وَدَقّــوا بَينَـــــــــهُم عِـطرَ مَــنشِمِ

وَقَـد قُلتُما إِن نُدرِكِ السِلمَ واسِـــعا بِمــالٍ وَمَعـــروفٍ مِنَ الأَمرِ نَسلَمِ

فَأَصبَحتُما مِـنها عَلى خَيرِ مَوطِنٍ بَعيـــــــدَينِ فيها مِـن عُقوقٍ وَمَأثَمِ

عَظيمَيـنِ فــي عُليا مَـــعَدٍّ وَغَيرِها وَمَـــن يَستَبِح كَنـزًا مِنَ المَجدِ يَعظُمِ

ولم يكن زهير بن أبي سلمى ليعظّم صنيع الرجلان لولا إعجابه بهما، وبحسمهما للصراع الذي دام بين قبيلتين لمدة أربعين سنة.

وبالمقابل ظهر شعراء كانوا يسعون لمدح الممدوح رغبة في هداياه وعطاياه؛ فسمي هذا النوع من المدح بـ: "مدح التكسب"، فقد عُرف بعض شعراء الجاهلية بمدحهم للملوك كي ينالوا هداياهم،فيرفعون من شأن الملوك، ويصفونهم بغير صفاتهم، ولعل ذلك كان سبب رغبة الملوك والخلفاء بذلك المدح الذي يرفع من شأنهم، فيغدقون بكرمهم على الشعراء تحفيزا لهم على الغلو في ذلك المدح رغبة في إرضائهم، وخير من يمثل هذا النوع من المدح: الشاعر النابغة الذبياني.

وقد ساير شعراء صدر الإسلام شعراء الجاهلية في مدح هذه الفضائل، وأضافوا إليها صفات حميدة أخرى جاء بها الإسلام؛ مثل : التقوى، التواضع، الورع، والصبر، فمدح الشعراء الخلفاء والولاة، ومدحوا تماشي حكمهم مع تعاليم الدين الإسلامي، وتقوى الله والعدل.

كما ظهر في صدر الإسلام المديح النبوي الذي هو عبارة عن الشعر الذي يهتم بمدح رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال تعداد صفاته الخُلُقية والخَلقية، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارته والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته الماديّة والمعنويّة ونظم سيرته شعراً، والإشادة بغزواته وصفاته والصلاة عليه تقديراً وتعظيماً.، يقول حسان بن ثابت مادحا النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

وَأَحسَنُ مِنكَ لَم تَرَ قَطُّ عَيني وَأَجمَلُ مِنــكَ لَم تَلِدِ النِساءُ

خُلِقتَ مُبَرّءً مِن كُــلِّ عَيبٍ كَأَنَّكَ قَد خُلِقتَ كَما تَشاءُ

أما في العصر العباسي فنجد مثلا مدائح المتنبي التي مدح من خلالها سيف الدولة الحمداني، والذي كان يصفه بصفات العظمة والرفعة التي يتصف بها حقيقة وفق رؤية المتنبي له،بينما كان مدحه لـ كافور الاخشيدي مجرد طمع في ولاية كان قد وعده بها كافور الاخشيدي.

وتجدر الإشارة إلى أن المدح قد ازدهر في العصر العباسي من خلال تصويره لمختلف البطولات، من خل مدحه للخلفاء، وشجاعة القادة، وسياسة الوزراء، وعدل الفقهاء والقضاة.